لماذا هذا الكتاب؟

نمضي حياتَنا دون أن نعيَ في الغالب أنَّنا "على لائحة الانتظار"، أطفالًا كنَّا أم كبارًا، لائحة انتظار تحتمل العديد من المسميَّات، وهي تظهرُ في كلِّ مرحلة من عمرنا تقريبًا: في المدرسة ننتظر الجامعة، ومن الجامعة يبدأ انتظار التخرُّج والعمل، ننتظر دائمًا خبرًا من بعيد، علَّه يُغيِّرُ مجرى حياتنا. ربَّما ننتظرُ لفتةً من حبيبٍ أو كلمةَ شكرٍ من قريب، أو ترقيةً في العمل أو أوضاعًا معيشيَّةً أفضل، ننتظر شفاءً روحيًّا كان أم جسديًّا. ذلك الانتظار هو ما يجعلُ لحظاتِ سعادتِنا متوقِّفةً، فننسى أحيانًا أن نعيش، وننسى أن نستمتع بالرِّحلة محدِّقين فقط في لائحة الانتظار!

غير أنَّ الخبرَ السعيد هو أنَّ "على لائحة الانتظار" هناك معجزاتٍ ما زالت تحدث!

لم أوثِّقْ في هذا الكتاب تجربةً أو انتصارًا شخصيًّا؛ فكلُّ يوم نسمع عن قصصٍ أهمَّ وأقسى هَولًا، بل كانت لديَّ رغبةٌ أن تسمَعوا هذه القصَّة محكيَّةً منِّي بكلماتي، لعلَّها طريقةٌ أخرى لأتواصَلَ معكم، ليس من خلف الشاشة أو بوجود محسِّنات للصورة؛ فمهما تجمَّلْنا يبقى للكَلِمات رَونقٌ آخرُ بعيد عن هذا العالم، لعلَّها تصلُ دون استِئذانٍ أو مقدِّماتٍ اعتَدتُم رؤيتي

بها، فتأتيكم صباحيَّةً طبيعيَّةً دون مكياج أو لمسات التحضيرات النهائيَّة.

لمن كان على وشك الاستسلام ففقدَ ابتسامتَه شيئًا فشيئًا، لمن تملأ الحسرة قلبَه لعدم تحقيقه حلمَه، لمن يرى الآخرين دائمًا أفضل منه، وأكثر سعادةً ونجاحًا واستقرارًا منه، لغير القنوعين في الحياة، ممَّنِ اعتادوا لَومَ الأفراد والحكومات والحظوظ قبل أن يلوموا أنفسهم، لمن يعيشون الحياة ذاتها عشرات السنين، لمن لا يريدون أن يستَيقظوا مكذِّبين العصافير التي تغرِّدُ لتُخبرَهم بأنَّه يوم جديد، لمن فكَّر في الانتحار ولم يجرؤ، لمن بكى بحُرقة لأنَّه فقدَ لذَّةَ أيِّ شيء في حياته، لمن فقد غاليًا- أقول لكلِّ هؤلاء إنِّي أردتُ أن أوثِّقَ حقيقةً واحدة في هذا الكتاب: تشجَّعوا؛ فما نعيشُه ليس كلَّ الحقيقة. اصنَعوا الخيرَ الآن، واحصدوه في السماء؛ فهي الحياة الحقيقيَّة التي سنلتقي فيها يومًا إذا اجتَمَعْنا على الإيمان. أقولُ لكم جميعًا إنَّ الله يُحبُّكم، أجل يحبُّ كلَّ واحدٍ منكم بخطاياه وآثامه، والله يريدُ أن يراكم فَرِحين، وسيُرسل إليكم ما يفرحكم (مهما كانت الأحوال التي تمرُّون بها الآن).

إنَّ أكثرَ ما يُضجِرُنا هو التَّنظيرُ في مجتَمَعاتِنا العربيَّة، وآمل ألَّا يُصنَّفَ هذا الكتاب على أنَّه مجموعةٌ من السطور الجوفاء بلا قيمة، فيُرمى أو يوضَعُ على الرفِّ وتعلو الغبار غلافه!

شَبِعْنا، نحن العرب، تنظيرًا، وأضَعْنا حياتَنا بحثًا عمَّا هو صحيحٌ، وهَرَبًا ممَّا هو خطأ أو محرَّم. لم نوجَدْ على هذه الأرض لنحرِّم أو نُحرَم، فآمل أن يكونَ

هذا الكتاب بعيدًا عن هذا القالب، ويكونَ عمليًّا نرى به أخطاءنا بالنَّظر إلى مشاعري، مع إسقاط تلك الأخطاء على حياتنا بمواقفها وتقلُّبات مشاعرها.

ما عشتُ يومًا في برجٍ عاجيّ، غير أنِّي لم أُحرَم نعمًا كثيرة! أنا أمثِّلُ ما هو متوسِّط في الطَّبقةِ والطِّباع الجمال والذكاء؛ فأنا ابنةُ الحارة، والسفر ساعات طويلة بالحدِّ الأدنى من وسائل الراحة. أنا ابنة ببساطة تفرحُ بحلول العيد، وتحزن إذا لم تنَلْ هديَّتَها التي حلمت بها.

لعلَّ هذا الكتاب هو بصيصُ نورٍ وأملٌ، لو لشخصٍ واحد، يتلقَّى منه الحافزَ ليُدركَ أنَّ الحياةَ لا تقف عند حدود وضع صعب أو إمكانيَّاتِ شخص. لعلَّه حافزٌ لنتخلَّى عن فكرةٍ سائدةٍ كثيرًا: أنِّي سأتغيَّرعند تغيُّر أحوالي، غير أنَّ العكس هو الصواب؛ فبتغيُّرنا من الداخل تتغيَّر مجريات الأمور نحو نهر فيَّاضٍ من البركات التي أُنعِمَ علينا بها دون استِحقاق.

هذا الكتاب هو دعوة للاقتراب أكثر نحو ما نريد؛ فكثيرًا ما نهابُ الاقتراب من أحلامنا، فتهربَ منَّا لأنَّها سئمَتِ الانتظار! ليس هناك ثبات، لا لِلَحظاتِ الفرح ولا للحُزن، كما ليس هناك ثباتٌ لِلْفَشل أو النجاح إلَّا إذا أرَدْنا ذلك.

أردتُ أيضًا أن أُبحِرَ بانتقادِ نفسي قبل تمجيدِها لأقولَ إنَّنا ملاَنون بالضَّعفات والأخطاء؛ فنحن البشرَ بعيدون عن الكمال، والنِّعم التي تُغدَقُ علينا لا نستحقُّها، لكنَّ علينا استغلالها فحسب على أحسن وجه. حاولتُ قدرَ

الإمكان أن أتكلَّم عن ثغراتِ شخصيَّتي، وأن أكونَ صريحةً مع نفسي ومعكم، لأنَّنا نحاولُ أن نكونَ مثاليِّين في الغالب، وهذا غير منطقيٍّ ويُثقِلَ كاهَلنا بما ليس لنا من طاقة لاحتماله.

في كلِّ يوم أقابلُ أشخاصًا نجَحوا وعملوا بكدٍّ وقطعوا أشواطًا في مشوارهم، وأنا لا أزالُ أتخبَّطُ في مشواري وأكافح مع نقاط ضعفي. غير أنِّي وجدتُ على الأقلِّ طريقة لأتحدَّثَ بشأن النِّعَم التي حباني بها الله قبل تناوُلِ مشكلاتي، وبشأن نجاحي قبل إخفاقي؛ فوُصول أيِّ شخص إلى مقصِده لا يأتي بمحض الصدفة، بل تقودُ كلُّ خطوةٍ إلى أخرى، وليس علينا سوى أن ننهَضَ خارج دوائر راحتنا (سواء كانت البيت أم البلدَ حيث نعيش أم أيَّة دائرة نأبى تركَها تمسُّكًا براحةٍ نظنُّ أنَّها أفضلُ ما يمكن الحصول عليه).

وأشدِّدُ في نهاية هذه المقدِّمة الطويلة نسبيًّا أنِّي أشارِكُكم بعضَ التفاصيل والمراحل المهمَّة من حياتي، ليس لأنِّي البطلة الخارقة أو لأنَّ المشكلات التي اعترَضت في حياتي هي الأكبر؛ فهناك ملايين المعذَّبين الذين يفتَقِدون إلى أهمِّ مقوِّمات الحياةِ البسيطة، ويعانون أكثر بكثير، ولا يملكون القدرةَ على إيصالِ صَوتِ أنينهم حتَّى. هناك ملايين التائهين الذين لا يعرفون أين يتَّجهون، فأنا هنا لأقولَ لكم التَفِتوا إلى السماء، من حيثُ تأتي المعونة، ومن حيثُ تنسكبُ المعجزات، مهما طالَ مكوثكم "على لائحة الانتظار"!

الفصل الأوَّل

البداياتُ في الحبِّ والعمل

إلى "بيت جالا"

في بلدةٍ صغيرةٍ مقدَّسة ترتفعُ فيها الترانيم، بدأت قصَّةٌ ربَّما تكون مثل باقي القصص، غير أنَّ من التفاصيل تولد الحكايات. كم من تفاصيلَ تغيبُ عن أذهاننا سنوات، لترجعَ وتصنعَ من السطور حكاية تُبكينا وتُفرِحنا.

جاءت والدتي مع بداية الامتحانات النهائيَّة في المدرسة لمَّا كنتُ في الصفِّ الرابع الابتدائيّ، وأخبرتنا عن مخطَّط الذهاب إلى الضفَّة الغربيَّة لزيارة الأهل هناك في العطلة الصيفيَّة، وكان المقصِد المحدَّد "بيت جالا". أخَذَنا الحماس أنا وأختي الكبرى دارين؛ ففكرة السفر إلى أيِّ مكانٍ كانت تُفرحنا، حالُنا حالُ أيِّ طفلتَين. سيطرت والدتي على الأجواء الحماسيَّة بجملة "يلَّا ادرسوا بسرعة عشان نروح بسرعة"، فحزنتُ لأنِّي سأرجع إلى كتبي وجدول امتحاناتي التي كنتُ أخشاها.

كان هذا في عام ١٩٩٧م، وبعد انقضاء فترة الامتحانات، اتَّجهنا إلى جسر الملك حسين، الذي يفصل ما بين ضفَّتَي نهر الأردنّ، ومنه إلى الضفَّة الغربيَّة، وكنتُ أترقَّب هذه التجربة التي سمعتُ عنها الكثير.

لأنَّنا حاصلون على تأشيرة زيارة، لاحظتُ أنَّنا حظينا بمعاملة أفضل من حاملي الهُويَّة الفلسطينيَّة الذين يشهدون أنواعًا مختلفة من الذلِّ في أثناء سفرهم. وصلنا إلى هناك، وشعرتُ بأنَّ ذلك المكان مألوف؛ فطبيعة الأردنِّ وفلسطين قريبةٌ إلى حدٍّ بعيد من حيثُ التضاريسُ والطراز المعماريّ.

انتابَني في أثناء زيارتي إلى فلسطين الحبيبة نوعٌ من السِّحر ما زال عالقًا في نفسي؛ فتلك هي زيارتي الوحيدة حتَّى اللحظة. بعد وصولنا بعدَّة أيَّام، انطلقنا هناك في جولةٍ زُرنا فيها كنيسة المهد في بيت لحم، وكنيسة القيامة والمسجد الأقصى في القدس، وتدفعُك زيارة تلك الأماكن بطريقةٍ لاشعوريَّة إلى الانحناء أمام قدسيَّة الأجواء. التقَطْنا هناك العديد من الصور، وأذكر أنِّي ارتديتُ في أثناء زيارة كنيسة القيامة قميصًا أخضرَ، واشتَرينا طواقي من القشِّ اتِّقاءً لحرِّ شمس الصيف، وهي جُزئيَّةٌ تُكمل صورتنا وتجرِبتنا بوصفنا سيَّاحًا. تجوَّلنا في سوق القدس القديمة، وزرنا أيضًا الجانب المحتلّ. وفي إحدى المرَّات، حاولنا إدخال أحد أقاربنا دون تصريح كما هو مفروض على مَن يسكن في الضفَّة الغربيَّة ليستطيعَ العبور إلى الجانب المحتلّ. وقد نجحنا بذلك عندما جعلناه يُمسك أختي الصغرى، ويتظاهَرُ باللَّعب معها في أثناء التفتيش السريع للحافلة. وقد نجح الأمر وقتها؛ ففي عام ١٩٩٧م كانت الأجواءُ أكثرَ استقرارًا والإجراءاتُ أقلَّ تعقيدًا، حيث لم تكن "الانتفاضة الثانية" قد تفجَّرت بعدُ، وكنَّا نعيش على بقايا "السلام" جرَّاء "اتِّفاقيَّة أوسلو" ١٩٩٣م وعودة الزعيم الفلسطينيِّ الراحل ياسر عرفات (أبو عمَّار) وقيادات منظَّمة التحرير، وتأسيس السلطة الفلسطينيَّة وبعدها توقيع اتِّفاقية

"وادي عربة" مع الأردنّ، التي سمحت لنا برؤية فلسطين. تغيَّرت الحال الآن وباتت أكثر تعقيدًا. أذكرُ قبل وصولي إلى هناك أنِّي كنتُ خائفةً من مقابلة الإسرائيليِّين نتيجةَ ما سمعتُه عنهم من الأخبار ومن قصص الكبار، لكنَّ ما أثار استغرابي هو مدى تظاهُرِهم باللُّطف، وإتقانهم هذا التظاهر إتقانًا بالغًا!

عند دخولنا الجانب الإسرائيليّ، أدهَشَنا جميعًا مدى النظافة والترتيب والنظام وجمال المناظر هناك، ممَّا يجعل العين تجول وتتمتَّع، فكيف للأرض ذاتها أن تشهدَ هذه الفجوة الشاسعة في الترتيب والنظام والاهتمام بالجماليَّات؟ وقد علَّق أحد المسافرين معنا حينها بالقَول: "لو إنْها مع العرب كان خربت زمان"، ووافق الجميع بروح منكَسِرة لجبروت الاحتلال، ولم يدافعْ أحدٌ أو يستَأ من تلك العبارة؛ حيث إنَّنا نحن العرب لم نَحم هذه الأرضَ المقدَّسة، ولا حافظنا عليها ولا أبرزنا جماليَّتها. وهكذا باتَتْ نظرتُنا دونيَّةً إلى أنفسنا، وواقعُنا انهزاميًّا على الدوام، إلَّا مَن رحمَ ربِّي.

كان منزل أقاربنا حيث أقمنا في بيت جالا منزلًا بسيطًا لا يختلف كثيرًا في طريقة البناء عن البيوت في الأردنّ، لكنَّ ما لفتني فيه هو وجود دكَّان صغير في ساحته، وقد احتوى على أنواع لذيذة من المأكولات حلوةِ المذاق التي كنتُ أتذوَّقها للمرَّة الأولى، ومنها الويفر الهش الذي أدمنتُ عليه في تلك الإجازة. ومن اليوم الأوَّل، رحتُ أتعرَّف إلى العائلة والأقارب، ولفتني طفل جذَّاب وجريء، كان نحيلَ البنية ذا شعرٍ أشقر داكن بقَصَّة شعرٍ غريبة جعلَتْ غُرَّتَه تغطِّي جزءًا من جبينه وعينه اليمنى، فكان يُزيحها

عن وجهه بين الحين والآخر. بدأنا نتحدَّث ضمن مجموعةٍ من الأقارب الذي عرفتُهم للتَّوّ، وهناك أوشى الأطفال ببراءة خبيثة أنَّ ذلك الطفل يملكُ صوتًا جميلًا، فطلبتُ منه الغناء متوقِّعة أن يتمنَّع أو يخجل، غير أنَّ ما جرى أثارَ دهشتي؛ إذ لم يتردَّد وراح يغنِّي فورًا وبكلِّ حماس!

كم لفتَني عدمُ امتناعه عن الغناء وجرأتُه البالغة! إنَّ هذا الطفلَ يتمتَّع بشيء مميَّز، حتَّى تعابير وجهه تفاعلت مع الأغنية بإتقان لافت إذ قطَّبَ حاجبَيه وأغمض عينَيه، وبرزت عُروقٌ في رقبته عندما راحَ صوته يعلو في المكان. ولمَّا كان يغنِّي، كان الصمتُ يخيِّم على تلك الساحة التي اكتَظَّتْ بلَعبِ الصِّغار. وكانت الأغنية التي ردَّدها هي أغنية الفنَّان اللبنانيِّ وائل كفوري: "أنا رايح بكرا عالجيش...اتجنَّد بين رفائي"، وهي أغنية يذكرُها جيِّدا جيل الثمانينيَّات.

لقد أبهَرَني أداءُ ذلك الطفل، وعلقَ في ذاكرتي الطفوليَّة.

كان لقاءً خاطفًا وجميلًا تركَ في نفسي أثرًا لا يُمحى، وفضولًا حول ذلك الشخص، وظلَّ هذا الفضول حاضرًا على مدى سنواتٍ عديدة بعدها، حتَّى إنِّي تظاهَرتُ بحبِّي لِلَعبِ كرة القدم لأُمضي وقتًا أكثرَ بصحبته. وقد أمضَينا ساعاتٍ مثيرة مع الأطفال الآخرين. غير أنَّ تلك الأوقات الساحرة انتهت عندما نادته والدته: "طوني يلَّا بدنا نضُبّ أغراضنا. بكرا رايحين على عمَّان".

وهنا بدأت ربَّما أولى الصفعات الخفيفة من الحياة؛ حيث خطَّط أهل طوني أن يُمضوا إجازةَ الصيف في عمَّان، وهكذا عاكَسَتْنا الأوقات! تركتُ كرة القدم التي لم أحبَّها يومًا، وتركت معها فرصة الاستمتاع بصحبته. وهكذا اكتشفَ الأطفالُ أنَّ دانا لعبَتْ فقط عندما كان طوني موجودًا. ومنذ تلك اللحظة صِرْنا حاضرَين أحدُنا في مخيِّلة الآخر، وهو أمرٌ عَلمتُه لاحقًا منه، واختبأنا بين أمور كثيرة سنتقاسم حلاوةَ استكشافها ضمن ما حملَه المستقبَل من مجهول.

طفولتي تكره الوداع

كنتُ قد أمضَيتُ سنوات الطفولة في حياتي في مدينة الزرقاء مسقط رأسي. وقد عشتُ في بيت جدَّتي لأمِّي ومعها خالتي، حيث اضطُرَّت والدتي إلى العيش مع أهلها في الزرقاء بسبب عمل والدي في السعوديَّة في الثمانينيَّات. ومع أنَّنا حاوَلْنا أن نتأقلمَ على فكرة العيش في السعوديَّة، فإنَّ صعوبةَ الاستقرار هناك جعلتنا نترك والدي ونرجع إلى الأردنِّ لنكتفيَ برؤيته فقط بما أُتيح لنا من إجازات.

كانت سنوات الروضة حتَّى الصفِّ الرابع في مدارس الروم الكاثوليك. وقد واجهتُ في صفِّ الروضة وقتًا عصيبًا لأتقبَّلَ فكرةَ الفراق عن والدتي، وهي مشكلة تجلَّت في العديد من المواقف لاحقًا. أذكر أنِّي لم أتقبَّل الروضة، حتَّى إنَّ أهلي جرَّبوا طرقًا شتَّى لأقبَلَها، واشتروا الألعاب في محاوَلةٍ منهم لخداعي عندما تُهديني إيَّاها المعلِّمة، لكنْ دون جدوى.

لقد كنتُ بمجرَّد أن أشمَّ رائحةَ الكعك الطازج باليانسون التي تنبعثُ من "مخبز جواد" الذي كان على مقربة من روضتي، حتَّى أبدأ أشعرُ بأوجاع في بطني نتيجةَ الخوف من أنِّي سأترك دائرة راحتي مع أهلي، وأدخل أسوارَ عالمٍ جديدٍ لا أعرفه.

خضعتُ لسُنَّة الحياة وقتها مُجبَرةً، وذهبتُ إلى الروضة. تأقلمتُ نسبيًّا مع الفكرة، لكنَّها لم تكنْ تُعجِبُني. ومن المواقف الطريفة التي وقعَت معي في إحدى المرَّات في وقت "الفرصة" أنِّي تذوَّقتُ ساندويتش إحدى صديقاتي، وأعجبني طعم الجبنة جدًّا حتَّى إنِّي طلبتُ من والدتي وخالتي أن تُحضِرا لي مثلها. وبالفعل حاوَلَتا جاهدتَين معرفة اسم هذه الجبنة أو نوعها، ولم تتمكَّنا من العثور عليها في السُّوق. فقرَّرتُ أن أستفسرَ منها عن نوع الجبنة، فقالت لي: "بابا بيشتغل طيَّار، وبجيب هاي الجبنة من السعوديَّة". كانت منتجاتُنا في تلك الفترة محدودةً قبل انفتاحنا على الأسواق الخارجيَّة. وتجنُّبا للبحث في الاتِّفاقيَّات التجاريَّة، كان الحلُّ المقترح أن نتبادل "السندويتشات"!

من المواقف التي أحملها معي أيضًا من أيَّام الروضة عندما يكون والدي موجودًا في الأردنّ، وكان يُقِلُّني أحيانًا إلى الروضة، ويغنِّي لي عندما يراني لا أتمتَّع بالنشاط الصباحيّ، أو عندما يبدو جليًّا أنْ لا رغبةَ عندي في الذَّهاب إلى الروضة: "نام بكِّير وقوم بكير وشوف الصحَّة كيف بتصير" مع "التطبيل" على مِقوَد السيَّارة، وكنتُ أجامِلُه بابتسامة، وأنزلُ مُرغَمةً إلى صفِّ الروضة.

كان بيت جدَّتي في الزرقاء يقع في إحدى "الزواريب" المنحدرة الضيِّقة. لذا عندما كان يحضر والدي بسيَّارته الكاپريس الأميركيَّة الضخمة خمريَّة اللون، كانت بالكاد تتَّسع للمرور عبرها. وعندما أركبُ معه، كنتُ أتباهى بها أمام "أولاد الحارة" الذين كانوا يرمقوننا بنظرات استغراب، كونهم لم يروا سيَّارة مثلها في الحارة. وكثيرًا ما كنتُ أقلقُ أن تتعرَّض للخَدْشِ نتيجة ضيق "الزاروبة". كانت تلك السيَّارة تعني لي أشياءَ جميلةً أهمُّها أنَّ والدي بجانبي، وأنا معه في زياراتٍ ومشاويرَ كلَّ يوم، وكنَّا نُمضي أوقاتًا رائعةً في الأردنّ. كم كنتُ متعلِّقةً بوالدي وكنتُ أعشق أناقتَه بكلِّ تفاصيلها: ألوان بدلاته، ورائحة عطره، وحنانه واهتمامه بي! ومن جملةِ ما أذكرُ أنَّه كان يحرص على وُجود علبة "ملبَّس" فاخرة في السيَّارة. كنتُ أستمتع بكلِّ اللحظاتِ التي تجمعنا معًا، إلى أن تنتهيَ إجازته ويحين وقتُ رجوعه إلى السعوديَّة.

كان ارتباطي وتعلُّقي بالأشياء غريبًا، فكنتُ مثلًا أشترط عند عودتي من المدرسة أن تكون والدتي بانتظاري في مكان وقوفِ حافلةِ الرَّوضة، وكان هذا أمرًا شاقًّا نوعًا ما، لا سيَّما أنَّنا كنَّا نقطنُ في إحدى الزواريب المنحدرة، كما ذكرتُ، وزاد الأمر صعوبةً في أيَّام حملها بأخي ليث. وعندما لم أكن أجدها في انتظاري، كنتُ أغضب وأعاتبها بشدَّة. كنتُ دائمًا أحتفظ بمنديل أعطتني إيَّاه وآخذه معي إلى المدرسة. وكلَّما نظرتُ إليه شعرتُ بالأمان وكأنَّها معي؛ فكثيرًا ما شعرتُ بعدم الأمان عند مفارَقةِ أحبَّائي.

انتقلنا لاحقًا إلى منزلٍ بناه والدي في مدينة السَّلط عندما كنتُ في

سنِّ الثامنة، وسط الجبال والطبيعة التي أُغرِمَ بها، على عكسي؛ فأنا أكره العيش بعيدًا عن العاصمة، وأردتُ الاقترابَ من عمَّان، وأميلُ بطبعي دائمًا إلى العَيش في المناطق الحيويَّة لئلَّا أشعرَ بأنِّي مُبعَدةٌ عن مواكبة ما يجري. هناك في السلط أمضينا أيَّام المدرسة والجامعة. ومع أنَّ المنطقةَ جميلةٌ بطبيعتها، فإنَّ هدوءَها كان يزعجني، لا سيَّما بعد إجازة الصيف التي كنَّا نُمضيها في السعوديَّة عند والدي. وكانت الإجازة ما بين العاصمة الرياض حيث يعمل والدي والخُبَر، وهي مدينة تقع في محافظة الدمَّام في المنطقة الشرقيَّة من السعوديَّة، حيث يقيمُ عمِّي وعائلتُه الذين تجمعنا بهم علاقةٌ قويَّة، فكانوا على بُعد أربع ساعات من الرياض، أي ما يعادل نحو أربع مئة كيلومتر، وكانت لعبتي المفضَّلة في أثناء ركوبي السيَّارة في رحلتنا إلى الخبر مراقبة اللافتات التي توضح المسافة المتبقِّية، فأغمض عيني متلهِّفة لأقرأ الأرقام من حين إلى آخر. وحيث إنِّي كنت أراها تقلُّ كيلومترًا بعد الآخر، فقد عنى ذلك أنَّنا نقترب شيئًا فشيئًا لنصلَ إلى بيت عمِّي، حيث كنَّا نمضي أجواء عائليَّة رائعة، بعيدين عن أيِّ همٍّ أو مصدرِ توتُّر.

لعلَّكم تتعجَّبون أنَّ أجمل أيَّام الطفولة هي تلك ما بين الرياض والخبر، فربَّما لا تكونُ للمكان أهمِّيَّة بتاتًا عندما نكون أطفالًا بلا هموم أو مسؤوليَّات، فنتوقَّع القليل ونفرح بأقلَّ منه. لم أصدِّقْ في طفولتي أحد الكبار حين قال لي: "خليكي زغيرة أحسنلك"، بل حسبتُ أنَّه لا يفقَه شيئًا؛ لأنِّي أردتُ أن أكبر وأتقن دوري في الحياة أشدَّ إتقان.

أمَّا عن طبيعة الحياة في السعوديَّة، فأقول إنَّها مختلفةٌ اختلافًا كبيرًا عن طبيعة الحياة في بلاد الشام؛ فهناك تشديد كبير فيما يتعلَّق بالحريَّات، ولا سيَّما من الناحية الاجتماعيَّة حيث لم يكن الاختلاط جزءًا من التركيبة الاجتماعيَّة. كانت الشوارع تكاد تخلو من مشاهد الاختلاط العامّ، ولا سيَّما الإناث، فضلًا عن عامل الجوِّ حيث كانت درجات الحرارة تصلُ أحيانًا في أيَّام الصيف إلى ٥٠ درجة مئويَّة، ممَّا يجعل نظام التكييف من أهمِّ الأنظمة التي تجعل الحياة على تلك الرقعة ممكنةً وصالحةً للعَيش. فترى الحياة مقتصرةً أكثر على الأماكن المغلقة في المولات التجاريَّة والمطاعم. وحتَّى في تلك الأماكن هناك عزلٌ وتحديدُ مداخلَ خاصَّة "للعوايل" (العائلات) وآخر للشباب العازبين. وتجعلُك هذه الأمورُ تستَوعبُ أنَّ الإدمان على الشراء والاستهلاك باتَ أمرًا مفهومًا ومسوَّغًا هناك، فضلًا عن مَنْع المرأة من قيادة السيَّارات، الأمر الذي تُطالِبُ به مجموعةٌ من السعوديَّات منذ وقتٍ طويل، لكنْ دون تقدُّم ملموس إلى الآن. كان ينبغي لنا أيضًا ارتداء العباءة السوداء والشال، مع أنَّ والدي يحمل "إقامة لغير المسلمين" كما هو مكتوب في دفتر إقامته. غير أنَّ ذلك لم يَعنِ إعفاءنا من التزام هذا الأمر. وإنْ لم نفعَلْ، كنَّا قد نتعرَّضُ للمساءلة من "هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، هذه وغيرها من المحدِّدات قد تكون الشيء الذي يمكن أن يجعَلُني لا أمانع من وداع والدي وتركه وحيدًا في تلك البلاد، والهرب الى الأردن ملجأي الحبيب.

لا شكَّ أنِّي كنت بوصفي طفلة بريئة- لا تفهم بعد أمور الدين ولماذا يقوم هؤلاء الرجال بمثل ذلك- أشعر أحيانًا ببعض المغص في معدتي لدى

رؤيتي لهؤلاء "المطوِّعين" الذين كنت أشعر بأنَّهم يظنُّون السوءَ حتَّى في فتاة لم تظهَرْ عليها ملامح الأنوثة بعد، فيلاحقون والدي لإجباره أن نرتديَ الوشاح الأسود نحن الأطفال، كما كان يُفرَضُ على والدتي إرفاقه بالشَّال لتغطية الشعر، وأحيانًا الوجه. حدَّثتْني والدتي في إحدى المرَّات أنَّ أحدَهُم كان يمسك عصًا من الخيزران وضرب بها كعب رجلها لأنَّه كان ظاهرًا من العباءة، ما جعلني أحمل هذا الشعور الموجع في داخلي نحوهم، لا سيَّما عند التحدُّث مع والدي؛ ففي ذاك المشهَد ظلمٌ وعدم احترام، بل هو موقف استضعافٍ وفيه مقدارٌ من الإهانة أو نوعٌ من الاستجواب لذَنب لم يقترفْه. لقد كانوا يوقِفونه لمجرَّدِ أنَّ هناك شيئًا ما يُزعِجُهم في مظهرنا، أو حتَّى إذا كان والدي يمشي في الشارع في أوقات الصلاة؛ فالمفترَض ألَّا يُجاهِر بعدم تأدية الشعائر الدينيَّة، وكان يمكن أن يتطوَّر الأمر إلى حدِّ إلقاء القبضِ عليه واقتياده إلى المركَز الأمنيِّ، كأنَّه ارتكبَ جريمة.

كان والدي يُهدِّئني عندما يراني مرتبكة من رؤيتهم، أو حتَّى عندما ألمحهم من بعيد، فيقول لي: "ما تخافي! هدول بوكس وبطيروا". لم يكن يخشاهم على الأقلِّ أمامنا، لكنَّ المؤكَّد أنَّهم مصدرُ "تنكيد" واضح لنا جميعًا. وفي السياق نفسه، لا يغيب عن ذهني موقفٌ أنَّه في إحدى المرَّات لحقوا بوالدي في أحد المولات، وأخبروه قائلين: "يا أخي، النساء إللِّي معك متبرِّجات"، فكان جوابُ والدي ذكيًّا حيث قال: "لا هدول حلوين من الله. مش حاطِّين مكياج".

في إحدى المرَّات أيضًا كنَّا مع عائلةِ مدير والدي، وهو سعوديُّ الجنسيَّة ومن ألطَفِ الناس وأرقاهم تعامُلًا وعلمًا. كنَّا نتناول وجبةَ العشاء معهم، ونحن مُنفَصِلون بالتَّأكيد، أي أنَّ المديرَ يجلس مع والدي وعمِّي وأخي، بينما نجلس نحن مع زوجته وبناته، وأحضرَ النادلُ طبقًا صينيًّا يُعرَف بِاسْم "سيزلينغ"، وهو يتميَّزُ بحرارته ووُجوبِ إحضاره فورَ خروجه من الفرن. فانبعث من خلف الحاجز الذي نجلسُ خلفه دُخان من الطبق، فما كان من أعضاء من الهيئة إلَّا أن دخلوا فورَ رؤيتهم الدخان، إذ كانوا يراقبوننا من بعيد. ولما اقتحموا القاطع عنوةً بحُجَّة أنَّهم ظنُّوا أنَّ النساء يدخِنَّ السجائر، تحوَّلَ الأمرُ إلى شجارٍ ما بين مدير والدي عبدالرحمن والذين دخلوا من الهيئة. فانْهالَ عليهم بالصياح محتجًّا على انتِهاكم حرمةَ المكان، واحتماليَّة تكشُّف زوجته أمامهم. يبدو أنَّ بعضًا من السعوديِّين أنفسهم لم يتقبَّلوا أفعالَ تلك الهيئة.

لقد جعلَتْني كلُّ هذه المواقف أحترم دائمًا التعايشَ الدينيَّ في الأردنّ، مع أنِّي لا أحبِّذ كلمة تعايش؛ لأنَّها تحتمل أنَّنا مفروضون بعضنا على بعض، بل بالعكس فقد أسَّسنا هذا البلد وتعبنا لنستمتع به بوصفنا مواطنين معًا، لا سيَّما أنِّي أمضيتُ سنواتِ المدرسة وكنتُ الطالبةَ المسيحيَّة الوحيدة في الصفّ، ولم أشعر بالتَّفرِقة.

عدا عن ذلك كنَّا نمضي إجازة الصيف بالسَّهر، في البيت دون شكّ، والذهاب إلى المولات، وهو أسلوب حياة الكثيرين هناك كونه النشاطَ الأكثر رواجًا لا سيَّما للنساء. كنَّا نستمتعُ بوجبات "الكبسة" و"المندي"

و"البروستد"، علاوةً على أنواعٍ شهيَّةٍ من الأسماك، وقد شهدَتْ تلك الأوقات متعةً وفرحًا بالغَين دون قلق. وأعتقد أنَّ العديد من المغتربين سيؤيِّدونني إنْ قُلتُ إنَّ الخليجَ هو راحةُ بالٍ مع وجود غصَّة الغربة.

كنتُ أستمتع بتلك الإجازات مع والدي إلى أن تأتي لحظة الوداع والعودة إلى الأردنّ. فأعانقُه في المطار، وأشتمُّ آخرَ نسماتٍ من عطره العالق على قميصه، وكنتُ أغالبُ دموعي؛ لأنِّي كنتُ أعلمُ أنَّ أكثرَ ما يُضايقُه هو أن يرانا نبكي. ولكنْ نادرًا ما كنتُ أتمكَّنُ من التحكُّم في دموعي أيَّام الطفولة. كنتُ أسترقُ النظرَ من بعيد، وأتصوَّرُ همَّ الوَحدة الذي بدأ يتشكَّل في مخيِّلته إذ يرجعُ إلى بيتٍ فارغٍ كنَّا قد تَرَكْنا فيه آثار اللعب والضحكات والدمى التي نسي أن يجمعَها ويضعَها في حقيبتنا؛ لأنَّه عادة ما يجمعُ كلَّ شيء متعلِّق بنا ليبقى ما يخصُّه فقط في ذاك المنزل، وبهذا يضمنُ قدرَ المستطاع ألَّا تخونَه لحظةُ ضعفٍ يخسرُ معها رباطة جأشه جرَّاء دُمية محشوَّة. لا يزالُ أبي يتظاهرُ حتَّى اللحظة أنَّ حياتَه طبيعيَّة، وما زال هناك متمسِّكًا بحياته مع أنَّها تخلو فعليًّا من كلمة حياة. هو من أطيب الأشخاص، ولعلَّنا دائمًا نظلمُ الطِّيبة وتظلمُنا لأنَّه قرَّرَ أن يعيشَ لغَيره لا لنفسه.

تجرَحُني تفاصيلُ صورةٍ حاضرةٍ في ذهني أنَّه اعتادَ تناوُلَ وجباتِه وحده، فليس هناك مَن يشاركه لذَّة الوجبة أو ملوحة نكهتها أو حتَّى انعدام الطعم والمذاق! أمَّا رجوعي إلى الأردنِّ فكانَ بغيضًا ومثَّل أوقاتًا أكرهُها؛ إذ كنتُ لا أتأقلمُ بسهولة، لا سيَّما عند لحظة النوم لعدم وجودِ صوتِ المكيِّف

الذي اعتَدتُه هناك، فكان هذا الهدوء يذكِّرني بكلِّ شيء لم أُرِدِ التفكير فيه، وكان الاستيقاظ في اليوم التالي شاقًّا للذَّهاب إلى المدرسة.

كانت المدرسة التي انتقلنا إليها بعد رحيلنا إلى السلط في عمَّان. فمكَّنَني مشوارنا اليوميُّ أن أحفَظَ تفاصيلَ طريق السَّلط- عمَّان، والذي يُعدُّ من أجمل الشوارع والمداخل القليلة العريضة في الأردنِّ في ذلك الحين، وكانت أشجارُ السرو المزروعة على جانبَي الطريق تُجمِّل المنظر، فكما قد يكونُ معلومًا أنَّ المنطقةَ تُشتَهَر بهذه الأشجار. لم نتأقلم بسهولة أنا وأختي الكبرى دارين معها، فأيُّ نقلةٍ سواء إلى مدرسة أم جامعة أم بيتًا هي حالةٌ من عدم الراحة للمرء، لا سيَّما في البداية.

ومن أجمل ذكريات المدرسة هي تلك الصداقات التي ظلَّتْ إلى يومنا هذا، فأنا من المؤمنين بأنَّ صداقات المدرسة أقوى وأجمل. وأذكرُ أيضًا حبِّي للمشاركة في الإذاعة المدرسيَّة، وقَولي دائمًا لصديقاتي: "راح تتزكَّروني لمَّا أصير مشهورة"، فكانت ضحكاتُهم تعلو في المقابل! وهنا يحضرني موقف في الإذاعة المدرسيَّة. كان من ضمن البرنامج اليوميِّ لإذاعة المدرسة تلاوة سورة "الفاتحة"، وكانت توكَلُ هذه الفِقرة إلى غَيري، لكنْ في أحد الأيَّام لم يحضر أحدٌ لتلاوتها وكان عليَّ أن أتلوَها، فأصابني إحراجٌ شديدٌ لأنِّي لم أتذكَّرها، ولم أستَطع إكمالها.

أحمل في ثنايا ذاكرتي أيضًا الرحلات والأنشطة الموسيقيَّة وإتقاني للدَّبكة والمشاركة في الحفلات. وكم يزداد اقتناعي يومًا بعد يوم أنَّ هذه الأنشطة

التي نطلق عليها "لامنهجيَّة" هي المنهج الأكثر تأثيرًا في حياة الطالب، وهي المنهَج الواقعيُّ والعمليُّ الذي يقرِّبُ الطالبَ من المجتمع وممَّا يحبُّ ولا يحبّ. وبينما لا أتذكَّر من المناهج والكتب إلَّا النزر اليسير، فإنِّي أتذكَّر الكلماتِ والمواقفَ الشخصيَّة المشجِّعة من المعلِّمات والمعلِّمين خارجَ حدود الكتاب. كم نحتاج في أسلوب التعليم لدينا ألَّا نضعَ على الهامش ما يمكنُ أن يكونَ الوَحدةَ الأساسيَّة في تشكيل الأجيال، وألَّا تكون نظرتنا إليهم محكومةً بالمحاسبة على عُشر العلامة وتضييق تفكيرهم بحجم الكتاب؛ فعقول الطلبة وطاقتهم أكبر من ذلك. علينا أن نقبلَهم بوصفهم نماذجَ ناجحةً قبل أن يبهرونا بالمعدل الوهميّ.

في المحصِّلة كان لأمِّي وخالتي دَورٌ أساسيٌّ في تنشئتنا، وهي مسؤوليَّة ثقيلة ثقلَ احتياجات كلٍّ منَّا؛ فكانت والدتي المرشد والمربِّي الذي يتابع شؤون البيت الداخليَّة والخارجيَّة، وأنا أُقدِّر حقًّا لها أنَّها سيطرت على الصعاب وتغلَّبت عليها، وأعتقد أنَّها أدَّتْ دَورَها على أكمل وجه.

"حبُّ الطفولة"...هل سيكبر؟

مرَّت الأيَّام واستيقَظَتْ قصَّة طوني من جديد، وذلك بعد مرور ستِّ سنوات منذ اللقاء الأوَّل في ساحة البيت في بيت جالا. كنتُ نائمة بعد الغداء، أو ما يُسمَّى "القَيلولة" وهي عادةٌ تعلَّمتُها من أبي، جاءت زوجة خالي التي تربطُها صلةُ قرابةٍ بطوني، وأخبرتْني أنَّه نجح في التوجيهي، وأبهرَ الجميع بنتيجة ٩٦٪، لأنَّه لم يكن من الطلَّاب المهتمِّين بالتحصيل الأكاديميِّ بقدر

اهتمامه بميوله الفنِّيَّة، غير أنَّ ذكاءَه وتصميمَه أدهشا الجميع. فرحتُ له دون شكّ، وتذكَّرت ذاك الشابَّ الوسيم الذي جمعَتْني به لقاءات خاطفة حين كان يأتي إلى الأردنّ، لكنَّنا لم نتكلَّم منذ لعبة الكرة تلك.

قرَّرَ طوني القدوم إلى الأردنّ، وهو الخيار الأفضل كونه يحمل الجنسيَّة الأردنيَّة، ويعرف الاردنَّ جيِّدًا، حيث كان يأتي كلَّ صيف ليُمضي جزءًا من عطلته الصيفيَّة في مادبا عند أقاربه. ومع أنَّه حصل على منحة لدراسة الطبِّ في ألمانيا بسبب تفوُّقه، كونه كان يدرس في مدرسة ألمانيَّة، فقد رفضَها وفضَّل الدراسة في الأردنِّ لأنَّه لم يُرِدْ أن يتخلَّى عن حلمه باحتراف الغناء، ولأنَّ سفره إلى أوروبا قد يَحولُ دون تحقيق هذا الحلم.

من المهمِّ هنا الإشادة بدَور أهل طوني وانفتاحهم على فكرة طوني للغناء، حتَّى إنَّ طوني كان قد طلب من والدَيه بعد نجاحه أن تكونَ هديَّة النجاح أن يسجِّلَ أغنيةً كان قد كتبها، وقد وافقَ أهله على ذلك، وسجَّلها في أحد الاستوديوهات في فلسطين، وقد أدمنتُ سماعَها بعدَما سمعتُها أوَّل مرَّة: "علَّقتيني من نظرة ما بيخطر ببالك...تحكي معي مرَّة تطمنيني عن حالك" (لا! لم يكتبْها لي).

قَدِمَ إلى عمَّان والتقينا، وبدأت قصَّة الإعجاب، والإكثار من افتِعال المناسبات والزيارات لنرى بعضُنا بعضًا، ولكن لم يفصحْ أيٌّ منَّا عن مكنونات قلبه للآخر. أخبرني عن طموحه بالغناء، وضحكنا بكلِّ صراحة على حلمه! فقد كانَ المجال الفنِّيُّ في الأردنِّ وقت ذاك ضعيفًا من مختلفِ

النواحي، ولم يكن هناك نجوم ودم شبابيٌّ يُغذِّي الإبداع والموسيقا، وكان يقتصر الأمر على طرح الأغاني الوطنيَّة والسَّير مع التيَّار السائد، فضلًا عن افتقارنا إلى أُسُس صناعة النجم. والسائدُ أنَّ معظمَ الناس لا يعطون الفنَّانين قيمتَهم، ويتهكَّمون عليهم بدل من أن يَدعَموهم ماديًّا، أو على الأقلِّ أن يرفعوا معنويَّاتهم.

بدأ طوني يتلمَّس طريقَه ويتعرَّفُ إلى أشخاص يعملون في الوسط الفنِّيّ، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى ألَّفَ أغنية خاصَّة به "بتروح وتغيب عليّ"، وطرقَ كلَّ الأبواب لتسجيلها، بل صوَّرَها أيضًا على طريقة الڤيديو كليپ لتُعرَضَ على القنوات الغنائيَّة، التي تعدُّ أساسًا لانتشار الفنَّان، حيث لم يكن "اليوتيوب" موجودًا في ذلك الوقت. إنَّ طوني جريءٌ ومقدامٌ وقويُّ العزيمة، ولم يدعَمْه أحدٌ في البداية، وتلك صفاتٌ أُكِنُّ لها كلَّ الاحترام في قلبي.

زارنا بعد طرح الأغنية وكنتُ قد بدأتُ مرحلة "التوجيهي" الأصعب في نظامنا التعليميّ. كان ملآنًا بالحماس بإطلاق أوَّل أغنية له، وقال لي بالحرف: "ادعيلي تكسِّر الدنيا" وأنا مستعجبةٌ في داخلي: "كيف له أن ينجح من أغنية؟" كان إيماننا بالفنِّ في الأردنِّ شبه معدوم. علمت بعدها أنَّه لم يُرِدْ أن يخبرني بمشاعره وإعجابه بي الذي كان قد تكوَّن حينذاك، وهو ما يفسِّر تكرار زياراته إلى منزلنا، وكتمَ مشاعرَه، مكتَفِيا باستراق النظرات نحوي. لم يكنْ يريدُ تشويشي كوني كنتُ في مرحلة التوجيهي، غير أنِّي أذكُرَ أنَّ تلك السنة كانت الأجمل في حياتي.

فَلاتَوقَّفْ قليلًا عند عام ٢٠٠٤م. لم أعلم أنَّ دراسة ما أرغب فيه سيُشكِّل متعة، فاختياري للتخصُّص الأدبيِّ شكَّل تحدِّيًا (حيث كنتُ أيضًا متفوِّقة في الموادِّ العلميَّة)؛ إذ كان شائعًا أنَّ مَن يختارُ هذا التخصُّصَ هم الأقلُّ ذكاءً أو قدرة على التحصيل الأكاديميّ. كان هذا أحد أوَّل القرارات التي لم تَرُقْ والدي، وبرهنْتُ به أنِّي مختلفةٌ في اختياراتي! كانت متعة التوجيهي تكمن في وجود هدف واضح، والهدف أمرٌ يصعب تحقيقه في عراك الحياة؛ فكلمة هدف سهلة أو حتَّى مستهلكة، لكنْ لو تعمَّقنا في معناها لرأينا أنَّ كثيرًا من الناس لا يملكون هدفًا واضحًا لحياتهم. وإن كان هناك هدف، فتحقيقه ليس بالأمر السهل، وهكذا يهيمون على وجوهم بحثًا عنه. فكم من أهدافٍ أضعناها بينما كنَّا نبحث عن أمورٍ ظننَّا أنَّنا نريدها.

وما زاد الأمرَ متعة، هو ذاك الهاتف الأحمر نوع "نوكيا"، والذي كان صلة التواصل العذريَّة بيني وبين طوني، فكانت الرسائل النصِّيَّة أو المكالمات ترسمُ ابتسامةً شقيَّةً على وجهي، فبدأت علاقتنا برسائلَ ومحادثاتٍ كانت تجمِّل يومي ربَّما لأنَّها لم تكن واضحة. أرى أنَّ الإعجاب الذي لم يُصرَّح عنه هو أجمل المراحل (على الأقلِّ عندي). كان هناك وقتٌ في النهار في أثناء الدراسة المملَّة يكسر حدَّة الرتابة، وهو انتظاري لبثِّ أغنية طوني، والتي كان قد أطلقها على محطَّة "ميلودي" التي كانت من أشهر وأهمِّ المحطَّات لانتشار الفنَّانين، وكنت أتابعُها بينما أشعرُ بالتوتُّر في داخلي، وكان توتُّرًا مصحوبًا بفرح وشعور جميل. كانت تلك بداية طوني الذي نعرفه اليوم.

انتهى التوجيهي وحصلتُ على معدَّل ٩٤٪، وقد فرحتُ جدًّا. انتظرت التهنئة منه، لكنَّه لم يتَّصل! وعندما جَمَعَتْنا أوَّل صدفةٍ بعد النتائج عاتبته. ولم أهتمَّ بوجود مسوِّغ لذلك بقدر اهتمامي أنَّ هناك حديثًا مشتركًا يجمَعُنا. وبعدها بأسابيع تسارعت الأحداث وبدأت ولادة شيء جديد.

تلقَّيتُ دعوةَ زفافٍ لإحدى صديقاتي، وعند دخولي القاعة، شعرتُ أنَّ هذا العرس هو فرحتي الكبرى. كنتُ مرتدية فستانًا صيفيًّا مخطَّطًا باللونَين الأسود والأصفر، بقَصَّةٍ عصريَّة قصيرٌ من الأمام وطويل من الخلف. كنتُ أشعر حينها بأنَّني مميَّزة، لا أدري إنْ كانت قصَّة شعري بعد التوجيهي هي التي منحَتْني هذا الشعور، والتي كانت تسمَّى قَصَّة "الأسد" التي تتميَّز بمنح الشعر كثافة، مع "تنفيشه" بالمشط لزيادة حجمه، ووَضْع مثبِّت الشعر عليه. ربَّما كانت تلك القَصَّة "فال خير عليّ"، أو ربَّما كانت تذكِّرني بإعجاب طوني بي حينها. المهمُّ أنِّي كنتُ أشعرُ حينها بكامل أنوثتي وجمالي.

بينما كنتُ في الحفل، أتت لحظة لن أنساها حين تلقَّيتُ رسالةً على ذاك الهاتف المحمول الأحمر، وجاء فيها: "اسمعي، أنا بحبِّك وعليّ وعلى أعدائي". وكان هناك شعورٌ يخبرني بأنَّها لحظتي المميَّزة، وها قد باحَ طوني أخيرًا بمشاعره نحوي بعد مرور سنة على صداقتنا. قالها بالحرف، فوقفتُ في منتصف القاعة مع صديقتي سلوى التي رافقتني إلى الحفل، وبدأنا نصيح فرحتَين لأنِّي كنتُ أشاركها قصصَ الإعجاب بيننا، وانتظاري للحركة

الأولى منه. أشتاق إلى "دانا" تلك التي كان صوتها وجنونها يملأ المكان. ربَّما لا أزالُ كذلك، أو ربَّما فُرِضَ علينا أن نكبرَ ويصغر ذلك الطفل في داخلنا.

ما زلت أذكر تلك الفرحة بالتفصيل، وأحسبها من أجمل لحظات الفرح وأنقاها. كان هذا الصيف ٢٠٠٤م من أجمل سنوات عمري. أتذكَّر دائمًا فرحتَه التي كانت مختلفةً وخاليةً من هموم الحياة، فبدا أنَّ الحياةَ كانت ترحِّب بنا من أوسع أبوابها. في هذا العمر قبل بلوغ العشرينيَّات لم نملك شيئًا سوى أطيافِ الطموح ولمحاتِ الأحلام، ولم نكن قد حقَّقنا منها شيئًا، غير أنَّنا كنَّا أسعدَ بما لا يُقاس. لماذا؟ سؤال ما برحَ يراودُني.

بدأتْ بعد هذا الاعتراف حالةٌ غريبة عندي- حالة ربَّما يُجمع عليها البشر: أنَّنا نهوى الأشياء التي لا نملكها، وعندما نملكها نفقد الرغبةَ فيها والشعور بقيمتها. كانت تلك الرسالة التي باحَ فيها طوني بمكنونات مشاعره نحوي هي ما سلبَه القوَّة ومنحَني إيَّاها؛ فبعد هذا الاعتراف كان عيد ميلادي على الأبواب، فدعت أختي دارين بعضًا من صديقاتي ومعهنَّ طوني وشقيقه أسامة. وكون طوني أحد المدعوِّين استغلَّ الفرصة (وهو بارعٌ في ذلك) وأخبرني بأنَّه يودُّ أن نذهبَ معًا إلى المكان المخصَّص للاحتفال، وهي فرصة للنقاش حول "المسج" التي أرسلَها قبل يومَين. فجاء إلى المنزل وجلسنا معًا قبل الذهاب إلى عيد الميلاد. كنتُ بجانبه بابتسامتي المتستَفِزَّة المشاكسة ناظرةً إليه، غير أنَّه بالكاد تمكَّن من النظر في عينيَّ، فبدا تائهًا ما بين الخجل وقلَّة الحيلة، حتَّى إنَّ شفتَيه كانتا جافَّتَين، وتكلَّم

بصوت منخفض متسائلًا: "شو دانا"، فأجبته "شو على شو؟" وبعد مماطلة مصطنعة لبدء الحوار؛ وبعد أن أمضيتُ الأيَّام القليلة الماضية أفكِّر في الردِّ المناسب، قلتُ له بعقلانيَّة: "أنا لسَّة زغيرة، وما بقتنع بمبدأ المصاحبة. لسَّة ما بديت حياتي ولا شفت إشي، يعني طوني لسَّاتنا زغار، وأي إشي بدِّي أدخل فيه رح يكون هدفه الارتباط الجدِّي وأكيد هاد مو وقته". وهكذا بدا جليًّا أنَّ جوابي هو الرفض- رفضُ بدء أيِّ شيء.

أتذكَّر ملامح الضعف وخيبة الأمل على وجهه بعد هذا الرَّدّ، وسألني إنْ كان في حياتي شخصٌ آخر. ماطلتُ بالجواب للتَّلاعُبِ بأعصابه أكثر، وواصلتُ الضَّحكَ و"الدلع"؛ لأنِّي لم أدركْ مرارةَ اللحظة له، وقد ذقتُها ذاتها في ما بعد. بعدها خضعتُ للإجابة بأنْ ليس هناك شخصٌ آخرُ في حياتي.

وما منحني الثقة بقراري هو أنَّ طوني راح يعيشُ حالَ العاشقِ الذي أنهكَه الصدّ، ولم يملك الثقة بنفسه حينها أنِّي يمكن أن أنجذِبَ إليه مجدَّدًا. كان يحدِّقُ بي في الجلسات ويلاحِقُني، لم يعجبني هذا، بل جعلَني واثقةً بقراري أنَّه ليس الشخصَ المناسبَ، وراحَ إعجابي به يتزعزع، غير أنَّه كانت في داخلي دائمًا فرحةٌ غير مفسَّرة عندما أراه، ولا تزال هذه الفرحةُ حاضرةً إلى يومنا هذا.

"من دونك شو بتسوى الدِّني...لو عشتا لو مية سني...أيَّامي كلا ولدنة..." أولى الكلمات التي ألَّفَها لي، وأهداني إيَّاها في تلك الأيَّام، وكتبها وصارت أغنية مشهورةً لاحقًا. وبعد مرور سنة تقريبًا من الصدِّ والتمنُّع، اتَّخذَ طوني

قراره بالابتعاد بعد أن فقدَ الأمل بأنّي سأبادلُه المشاعر ذاتها يومًا! ففي الوقت الذي بدأت به بالحنين اتّجاهه والاعتراف الضمنيّ بيني وبين نفسي أنّي أكنُّ له مشاعرَ خاصَّة ، لم يكن الاعتراف أمرًا سهلًا.

وفي صباح أحد الأيَّام التي قرَّرتُ فيها إخباره بالأمر، وصلَتني رسالةٌ منه على ذلك الهاتف "الأحمر" الذي بدأ يفقد توهُّجَه. وحملَتْ تلك الرسالة كلامًا مختلفًا عن كلام الحبِّ والغَزَل الذي اعتدتُه منه، وسبَّبَ لي ذاك الكلامُ حزنًا لسنوات. ذكرَتِ الرسالةُ أنَّه تعرَّفَ إلى إحدى الفتيات، وصار على علاقة مقرَّبة بها. وقال ما كنتُ أخشى سماعه، لا سيَّما بعدما كنتُ أتقصَّى أخباره من بعيد. أتذكَّر كلمات تلك الرسالة جيِّدًا "دانا، إنتِ شخص عزيز كتير على قلبي، ورح تضلّي مميَّزة بالنسبة إلي، بس شكله ما في أمل بينّا. أنا تعرَّفت على بنت كتير منيحة بتحبني، ومستعدة تعمل كل شي عشاني، الله يوفقك". سمعت العديد من الأحاديث أنَّه على علاقة بإحداهنّ. وهكذا أحسستُ بالأمر قبل أن يصيرَ حقيقةً جارحة، فرُحتُ أبكي بحُرقة لحظةَ قراءةِ هذه الكلمات، وكانت حالتي أشبَه بالانهيار.

علمتُ لاحقًا أنَّه لم يكُنْ فعلًا قد بدأ تلك العلاقة، وكانت رسالتُه هي فرصتي الأخيرة لأبوحَ بمشاعري، إنْ كان هناك أيُّ مشاعر. وبالتَّأكيد لم أعترفْ بشيء، وكان الحفاظ على كرامتي هو جلَّ اهتمامي. تضمَّنت آخر رسالة بعثتها إليه: "الله يوفقك، إنت بتستاهل بنت أحسن منّي".